

# هولوكوست الكتب

## الحرق كوسيلة للدفاع عن بقاء الطغاة

أحمد عبد اللطيف

داخل عقولهم، وتحرضهم برقة ضد الطاغية. لذلك، صار بالنسبة لهم إلهاً مختبئاً، يمنحهم إنسانية مفقودة مقابل ترديد كلماته.

اجتمع الطاغية بوزرائه ومستشاريه، قال لهم، بحسرة، إن خطبه صارت محض تفاهات ومثار تهكم من سكان مملكته، وأمرهم أن يقدموا له حلاً لتمردهم. قال أحدهم إن قطع الألسنة وسيلة فعالة، تم تجربتها من قبل وآنت ثمارها، فمن خلالها لن نسمع عبارات التهكم. لم يكن الطاغية يمانع في فعل ذلك، بل ولا يمانع في قطع الرقاب كذلك، غير أن أحداً لا يستطيع أن يضمن له تنفيذها بحرفية، وبخاصة أن سكان المملكة عدد كبير، ولا ينقصهم السلاح ولا الثأر. فاقترح ثانيهم، وكان أكثرهم رصانة، أن يقوم الجنود بجمع كل الكتب التي تحرض على التمرد وتعلم الحكمة. ابتسم الطاغية للفكرة وأضاف إليها: ثم نطرح كتبنا نحن، تلك التي تحض على طاعتي وتوقيري.

في اليوم التالي هبط الجنود إلى الشارع، بزى مدنى كيلا يلفتوا الانتباه. اشتروا كل الكتب المعروضة للبيع، وسرقوا الكتب الأخرى من البيوت في غفلة من أهلها حيناً، وبالعصب في أحيان

يُحكى أن أحد الطغاة، وكان من هؤلاء الذين يتخفون في شكل غرباء، يتجول في مملكته ليسمع العبارات التي يرددها ساكنوها. كان يتوقع، مثل كل طاغية، أن كلماته المعبرة عن الحكمة تتناقضها الألسنة بلا ضجر. وكان يظن أن البؤساء من الحماقة حد أنهم لا يميزون مشيته المعتدة، ونظرتة الفاجرة، وملامح وجهه القوية: وجه رجل لم يعرف الفقر، وجه رجل لا يفعل إلا ما يروق له، كان الناس يرددون فيما بينهم كلما رحل عنهم، ساخرين من غبائه الفطري.

في جولاته الصباحية، متنقلاً من مقهى إلى سوق، من شارع إلى حارة، من بيت إلى بيت، كانت كلمات كاتب العبارات ترن في أذنيه. في كل المناسبات والظروف، في أبسط الأحوال وأشدّها تعقيداً، كان الناس يطلقون عبارة تعبر عن حالهم، فيسأل الطاغية عن صاحبها، فيخبرونه أنه كاتب العبارات. فيسأل عنه، فيجيبونه بأنه ما من أحد يراه، فقط يقرأون كتبه ويتناوبونها.

كانت كلمات كاتب العبارات، ربما دون أن يدري، تشكل حياة هؤلاء البؤساء، تمنحهم تفسيرات، تعيد عليهم الأسئلة التي يكررونها فقط

كلنا، أجابوا فى نعمة واحدة. حينها أمر الطاغية بقطع رقابهم.

ومن جديد، اجتمع الملك بوزرائه ومستشاريه، متباهاً بأنه قضى على الفساد والتمرد، وأن المملكة ستعود إلى سابق عهدها. وزيادة فى الحيلة، أمر الجنود بمراقبة أحوال المملكة. بعد مرور يومين، ومن جديد، هبط الجنود. وأمام المفاجأة تسمرت أقدامهم. كانت كل الكتب التى اشتروها من قبل أو سرقوها تشكل هراً فى الميدان، وحولها يلتف السكان مرددين كلمات كاتب العبارات. ودون أن يدرى أحد كيف حدث هذا، يا جلالة الملك، صار سكان المملكة كلهم كاتب العبارات، قال الجنود.

\*\*\*

يرجع تاريخ منع وحرق الكلمة المكتوبة إلى فترة إعداد النصوص الأولى المسجلة فى بلاد ما بين النهرين منذ ٥٣٠٠ سنة. ومنذ ذلك الحين، استخدمت السلطة الدينية والسياسية هذا الميكانيزم كوسيلة للرقابة، وبررت ذلك بأنها إحدى طرق الحفاظ على المبادئ الأخلاقية والتقاليد. وسيراً على الخطى نفسها، فى عام ١٥٥٩، ظهر فى أسبانيا العمل الذى يعتبر أكثر الكتب تمثيلاً لمطاردة الكتب: فهرس الكتب المحرمة. وهو الكتاب الذى ضم قائمة بكل الكتب التى يجب حرقها لأنها تدعو إلى أفكار مارقة. ومع وصول فليبي الثانى للعرش عام ١٥٧٠، اشتدت حدة الرقابة الكاثوليكية ولم تكتف بمطاردة الكتب، بل وصلت إلى مطاردة المؤلفين أنفسهم.

فى الجزء الأول من دون كيخوته دي لا مانتشا، جسد ثريانتس هذا الهوس التفتيشى فى الكاهن والحلاق، اللذين يحرقان مكتبة ألونسو كيخانو عندما افترضا أن هذه القراءات أصابته بالجنون. ومن بين المؤلفين الذين وضعت أسماؤهم على مر القرون فى فهرس الكتب المحرمة كان فولتير ودانيل ديفو وكوبرنيكوس وبلزاك. وفى

أخرى، استمرت العملية عدة أيام وانتهت باختفاء الكتب.

تنفس الطاغية ملء رئتيه، واجتمع بوزرائه ومستشاريه، وشرع الكتب فى خط الكتب التى تدعو، بالنصوص الدينية والأحداث التاريخية، إلى اتباع الحاكم، ظل الله فى الأرض، يد العدالة، لسان الحكمة. وانتشرت فى غضون أيام، ملأت المكتبات العامة واحتلت الأرفف الخالية، لكن، وعلى عكس ما توقع الطاغية، لم تصل إلى أيدى سكان المملكة. فبعد مرور أيام أخرى، تخفى الطاغية كالعادة فى هيئة رجل غريب، وتجوّل من شارع إلى حارة، من مقهى إلى متجر، من بيت إلى بيت، ليسمع من جديد كلمات كاتب العبارات يرددتها الناس، وكانت هذه المرة أكثر سخريّة من المرات السابقة، وتخص بالتحديد الحادثة الأخيرة.

من جديد، يجتمع الطاغية بوزرائه ومستشاريه، فيشير أكبرهم سناً أنهم قد قصوا فروع الشجرة دون اقتلاع جذورها، فنبتت فروع جديدة. طلب منه الطاغية التخلّى عن المجاز وإيضاح وجهة نظره. فقال إن الحل يكمن ببساطة فى قطع رأس كاتب العبارات، حينها فقط يمكن الحديث عن شعب مطيع ولين. لكن كاتب العبارات كيان مجرد، كيف يمكن الإمساك به؟ سأل الطاغية فى حيرة. فلتكن هذه مهمتنا مهما كانت شاقة، أجب الأكبر سناً. فى اليوم التالى، هبط الجنود إلى المملكة من جديد، انتشروا بين جنباتها، منهم من جلس فى المقاهى، منهم من طلب عملاً فى ورشة، أو متجر، ومنهم من كانت مهمته التجول وزيارة المكتبات. توصلوا خلال عدة أيام إلى ثلاثة أسماء لا بد أن أحدهم هو كاتب العبارات. قرأ الطاغية أسماءهم وأمر بإحضارهم. من منكم كتب عبارات ساخرة عن اختفاء الكتب؟ سأل الطاغية. أنا، قال الأول. أنا، قال الثانى. أنا، قال الثالث. من منكم يسخر من الملك وينادى بالتمرد؟ أنا، قال الثلاثة فى نفس واحد. من منكم يريد إقامة العدل وإطلاق الحرية؟

الكتاب الأرجنتيني"، حيث حرق قوات الطاغية ما يزيد عن مليون ونصف كتاب في ساراندى.

\* \* \*

حادثة حرق كتب ابن رشد لم تكن، إذن، منفردة فى التاريخ، فحكايات حرق الكتب والمكتبات ومطاردة الكُتَّاب متكررة فى كل العصور وباسم كل الأديان. غير أن كتب العالم الأندلسى أشد قسوة علينا. فالأندلس كانت فردوس المسلمين، الأرض التى كانت مسعى لتكون يوتوبيا بالمعنى الثقافى الواسع، حيث العلم أساس الحضارة، والدين فى خدمة الحياة، والتواصل مع الآخر والانفتاح عليه معلوم من الدين بالضرورة. لم يكن متوقعاً، بل كان صدمة، أن تقوم الحضارة التى قامت على الكتب، بحرق كتب أحد أبرز علمائها، واتهامه بالكفر. قسوة الحادثة تكمن كذلك فى "الكاتب" نفسه، فابن رشد كان فيلسوفاً وطبيباً وفقهياً وفيزيائياً وقاضياً، وصحَّح فلاسفة سابقين عليه فى فهم بعض نظريات أفلاطون وأرسطو. بأية حجة كفروه حينذاك؟ وبأى منطق أخرجوه من عبادة العالم ليلبسوه عبادة الشيطان المارق؟ لم يكن حرق الكتب، ومصادرتها، ورقابتها، إلا انتصاراً للفكر أحادى الرؤية، وإقصاء لكل مخالف لها، وفى الوقت نفسه، وعلى عكس ما توقعوا، كان ذلك تأكيداً لأهمية ما خطه عالم جليل حد أنه زلزل الإمامة بأسرها دون أن يكون لديها من يرد الفكر بالفكر.

ثمة فاشية دينية امتدت على مر العصور، لم تتخلص منها أوروبا بتخلصها من الدولة الشيوعية والبدء فى عصر التنوير، بل اتسع الصراع ليصل إلى القرن العشرين، متخذاً أشكالاً أخرى مرتبطة بالسياسة. هكذا شاهدت الأرض التى حرق كتب ابن رشد مقتل واحد من أهم شعراء أسبانيا فى القرن الماضى، فيديريكو جارتيا لوركا. لم يكن الشاعر والمسرحى والرسام عضواً فى الحزب الشيوعى، لكن أفكاره التى

الطبعة التى صدرت عام ١٩٤٨ كانت تضم أربعة آلاف عنوان مُنعت بسبب الإلحاد أو الشكوك. وفى العاشر من مايو عام ١٩٣٣ اختار النازيون عشرين ألف كتاب صنّفوها على أنها "كتب ضد الألمان" وألقوا بها فى محرقة هائلة فى ميدان الأوبرا ببرلين، فأكلت، بالإضافة إلى كتب ضخمة لمؤلفين يهود، أعمالاً لبروست وويلز وجاك لندن وتوماس مان. فى الوقت نفسه، كان هناك هولوكوستات أخرى فى بون وفرانكفورت وبريمن وهانوفر ومدن ألمانية أخرى كثيرة. وكان من بين الشعارات التى حُرقت تحتها الكتب: "ضد الانحطاط الأخلاقى"، "من أجل انضباط ووقار ونبيل النفس البشرية". وكان منسق هذه العملية وزير الإعلام النازى جوزيف جوبلز، الذى أكد أن هذه الفعلة تمثل: "نهاية الفترة المتطرفة للمتقنين اليهود". وبهذا برر ما أسماه: "تسليم روح الماضى الشيطانية إلى النار". وكان حرق المكتبات له وقع الصدمة فى المجتمع الأوروبى، حد أن سيجموند فرويد، الذى كانت كتبه من بين الكتب المختارة، قال ساخراً إنها ظاهرة يمكن اعتبارها تطوراً فى التاريخ الإنسانى، وأضاف: "فى العصور الوسطى أيضاً كانوا سيحرقون كتبى".

بالإضافة إلى ذلك، أثار كتاب داروين أصل الأنواع جدلاً امتد لعقود، وبعد سبعين عاماً من ظهوره، عام ١٩٢٥، حُرِّم تدريسه واعتبره منافياً لقصة الخلق التوراتية، بل وتعرض بروفيسور البيولوجى جون سكوبس، الذى تحدّى هذا القانون، للسجن ولغرامة وصلت إلى مائة دولار. بهذه الحادثة وأحداث مشابهة، أثبت لنا القرن العشرون أن حرق الكتب ومصادرتها ليس مجرد ماضٍ وانتهى، فالرقابة الثقافية التى أشرف عليها الشيوعيون فى ألمانيا الشرقية عام ١٩٥٣ دمرت ما لا يقل عن خمسة مليون كتاب. شئ شبيه حدث فى الأرجنتين خلال الديكتاتورية العسكرية. وفى ٣٠ أغسطس عام ١٩٨٠ حدث ما سُمي "يوم خزى

الكبير أليخاندر كاسونا، صاحب مسرحية **الأشجار تموت واقفة**، اللجوء إلى الأرجنتين. وكان من بين أبرز الأسماء التي نُفيت للخارج الشاعر الكبير رفائيل ألبرت، رفيق لوركا في تأسيس جيل ٢٧، وفرنيسكو أيارا ولويس ثيرنودا وخوان رامون خيمينيث، صاحب نوبل.

من أكثر الكُتّاب الذين صودرت أعمالهم كان جويتيسولو (١٩٣١)، فحياته كلها كانت تمرداً على أسبانيا المحافظة والرجعية، ولعل موت أمه أثناء قصف قوات فرانكو لبرشلونة كان سبباً رئيساً في هذا التمرد. اختار جويتيسولو المنفى الاختياري وقرأت أوروبا أعماله قبل أن يقرأها الأسبان، حيث منعها الرقيب لحدّة انتقادها العميق للنظام الفرانكي. ففي عمله **علامات هوية**، مثلاً، يعود بطله من فرنسا إلى أسبانيا بعد أن أصيب بأزمة قلبية حادة، فيعيد تركيب تاريخه الخاص من خلال الصور والأوراق والحوارات، وبالتوازي مع هذا التركيب يراجع تاريخ بلده، وعبر عرض ماضيه يكتشف البطل كيف تمزقت القيم التي كانت في عائلته ومجتمعه، ليجد مدخلاً إلى نقد لاذع للحظة أسبانيا الراهنة (في فترة فرانكو).

إلى معسكر جويتيسولو، ينضم كُتّاب آخرون تعرضت أعمالهم للرقابة والمصادرة، أهمهم خوان مارسية (١٩٣٣)، ويعتبره النقاد أحد أهم روائى أسبانيا في النصف الثاني من القرن العشرين. عمل مارسية في محل مجوهرات، وفي السابعة والعشرين قرر التفرغ للأدب. نُفى إلى باريس وكتب أعمالاً نُشرت في المكسيك ومنعتها رقابة فرانكو. روايته **النهارات الأخيرة مع تيريسا** كانت تهكماً واضحاً من البرجوازية البرشلونية، وكان بطلها شاباً متسلقاً يحاول جذب فتاة ثرية متصنعاً أنه رجل سياسة. وإدواردو مندوثا، المولود عام ١٩٤٣، ينتمي إلى ما سُمّي جيل ٦٨. كتب مندوثا روايته الأولى **الحقيقة حول مسألة سافولتا** عام ٧٣، وكان عنوانها الأصلي "جنود

ناهضت الجنرال الفاشيست فرانكو كانت سبباً كافياً لاغتياله. هل فعلت قوات الجنرال ذلك خوفاً على الوطن أم على الكاثوليكية؟ المانيفيستو الفرانكي أعلن أن الكاثوليكية في خطر، وما من خطر، أثناء الحرب الأهلية الأسبانية، أشد على هذه الكاثوليكية من الكُتّاب. يتشابه في ذلك الحاكم المسيحي مع الحاكم المسلم، رغم أن الفارق الزمني بينهما يتخطى ثمانية قرون. أبو يوسف يعقوب المنصور خاف على الإسلام من أفكار ابن رشد المازقة، وفرانكو خاف على الكاثوليكية من الفكر الشيوعي الملحد الذي اعتنقه كُتّاب تلك الفترة، غير أن المفارقة الحقيقية أن فكر ابن رشد بقي رغم كل شيء، والشيوعية انتشرت عبر الكُتّاب أنفسهم وغيرهم، بينما رحل كلا الحاكمين.

مع انتهاء الحرب الأهلية الأسبانية، التي استمرت لثلاث سنوات (١٩٣٦-٣٩) تولى الجنرال فرانكو الحكم حتى وفاته عام ١٩٧٥. وخلال ما يزيد عن أربعين عاماً شاهدت الكتب مصادرات ورقابات بيد حديدية. فأول ما فعله الجنرال، بعد إرجاء العمل بدستور ٣١ وإلغاء الحقوق السياسية وحل الأحزاب ومطاردة قادتها، كان إلغاء حرية التفكير، فكل الأسبان يجب أن يكونوا كاثوليكين إجباراً والمشاركة في مظاهرات الحزب الواحد: الفيلق الأسباني. كما منع حرية التعبير وفرض رقابة على كل ما يُنشر. لذلك احتضنت المعتقلات النشطاء من الحركة الشيوعية، سواء كانوا كُتّاباً أم مجرد ناشطين. وفي تصريح له، قال الروائي الأسباني الكبير خابيير مارياس: "انتظرت ثلاثين عاماً حتى تخرج روايتي التي رصدت المجتمع وانتقدته في سنوات فرانكو". فضلاً عن مارياس، اختار الكثير من الكُتّاب ما سُمّي بالمنفى الاختياري، وكانت باريس قبلة لهم. هكذا نجد خوان جويتيسولو، من بداية عشرينياته، يلجأ إلى العاصمة الفرنسية ويبقى فيها حتى بعد رحيل فرانكو، بينما يختار آخرون، على رأسهم المسرحي

يظنون أنهم يتكلمون باسم الرب، كانوا على مر العصور أعداء الكتب، وكانت معركتهم الكبرى ضد المعرفة. ورغم كل الوسائل القمعية التي استخدموها من أجل فرض رؤيتهم الأحادية، انتقل الكتاب من مكان إلى آخر، وكتب الخلود للأفكار الجديدة في حين ذهبوا هم إلى حاوية النسيان. فالميدان الذي وضع فيه سكان المملكة كُتِبَ "كاتب العبارات" في شكل هرمي كان محض صورة أولى لكل المكتبات التي ملأت الميادين والبيوت فيما بعد.

اكتالونيا" ومنعت في فترة فرانكو، ونُشرت بعد وفاته مباشرة عام ٧٥، وكانت بذلك أول رواية تُنشر في الانتقال الديمقراطي وترصد الحياة في فترة الديكتاتورية، فتم استقبالها بحفاوة حتى أنها فازت في الربيع التالي بجائزة النقد.

\* \* \*

وأخيراً، فالطغاة السياسيون، العسكريون منهم على وجه الخصوص، والفاشيون الدينيون، الذين